الأصوات من منظور البلاغيين القدامى بين المرجعية اللغوية والخصوصية الإجرائية: "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي أنموذجا

Voices from the Perspective of the Ancient Rhetoricians between the Linguistic Reference and the Procedural Specificity: the "SIR ALFASSAHA" by Ibn Sinan al-Khafaji as a Model

تاريخ الاستلام : 2022/11/06 ؛ **تاريخ القبول :** 2023/02/05

ملخص

استفاد البلاغيون كثيرا من معطيات الدراسات الصوتية، حيث جعلوها أساسا لتحديد فصاحة الكلام وبلاغته إفرادا وتركيبا، وخصصوا لها مباحث مهمة في مدوناتهم. وقد تناولوا المكون الصوتي انطلاقا من أسئلة جمالية بلاغية وعيا منهم بأن الخطاب البلاغي، في بعديه الجمالي والتداولي، خطاب لغوي صوتي بالدرجة الأولى، لذلك ركزوا على دور الحروف وأثرها في المعنى ووظائفها في الكلام.

ويعد ابن سنان الخفاجي من البارزين في ربط الصوت بالبلاغة، إذ قدّم –بروح الناقد الأديب- أسباب الفصاحة بدءا بالأصوات، فذكر أوصافها ومخارجها، وأثرها على الكلام بالاعتماد على دراسات اللغويين والبلاغيين، فكان محطة بارزة في الدراسات الصوتية ولكن من منظور بلاغي، إذ انصهرت لديه الدراسات السابقة فأثرت فيه كما أثّر في غيره.

الكلمات المفتاحية: سر الفصاحة؛ علم الأصوات؛ علم وظائف الأصوات؛ فونولوجي.

* **سعاد ترشاق**

مخبر الجماليات في الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر.

Abstract

Rhetoricians have benefited greatly from phonetics being the criterion for the eloquence of the word as well as the sentence. They even devoted sections in their writings to discussing this subject. It should be noted that rhetoricians approached the phoneme based on rhetorical aesthetic issues, since they know very well that rhetorical discourse with its aesthetic and pragmatic dimensions is only a speech reported by the voice. So, they emphasised the letter and its effect on meaning; and its function in speech. Ibn Sinan Al- Khafaji is one of the famous rhetoricians who linked the phoneme to rhetoric by presenting the secret of eloquence from the phoneme. Accordingly, he mentioned its characteristics, points of articulation and effect on speech based on the research of linguists and rhetoricians. So, it became a prominent topic in the studies made about phonetics but from a rhetorical side.

Keywords: Sir Elfasaha, phonetics, physiology of sounds, phonology.

Résumé

Les rhétoriciens ont beaucoup bénéficié de la phonétique étant le critère de l'éloquence du mot ainsi que de la phrase. Ils ont même consacré des sections dans leurs écrits pour discuter ce sujet.

Il est à noter que les rhétoriciens ont abordé le phonème en se basant sur des questions esthétiques rhétoriques, puisqu'ils savent très bien que le discours rhétorique avec ses deux dimensions esthétique et pragmatique n'est qu'un discours rapporté par la voix. Alors, ils ont mis en relief la lettre et son effet sur le sens ; et sa fonction dans la parole.

Ibn Sinan Al- Khafaji est l'un des rhétoriciens célèbres qui ont lié le phonème à la rhétorique en présentant le secret de l'éloquence à partir du phonème. En conséquence, il a mentionné ses caractéristiques, ses points d'articulation et son effet sur la parole en s'appuyant sur les recherches des linguistes et des rhétoriciens. Alors, cela est devenu un sujet éminent dans les études faites à propos de la phonétique mais d'un côté rhétorique.

Mots clés: Sir Elfasaha, phonétique, physiologie des sons, phonologie.

* Corresponding author, e-mail:

souadterchag@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2023.

I - مقدمة

حظيت البحوث الصوتية باهتمام العلماء من مختلف التخصصات وفي جميع الأزمان. وكان للعرب القدامى حظ وافر فيها، إذ خلفوا مصنفات في الموضوع ذات شأن كبير، وعالجوا قضايا ما زالت محط اهتمام الدارسين المعاصرين. ويعود الفضل في ذلك للغويين، بسبب الظهور المبكر لعلم النحو واللغة على أيديهم وريادتهم فيه.

غير أن الاهتمام بالجانب الصوتي للكلام، لم يقتصر على هؤلاء فقط، إذ شاركهم البحث فيه البلاغيون، حيث جعلوا الأصوات أساسا لتحديد فصاحة الكلام وبلاغته إفرادا وتركيبا، وخصصوا لها مباحث مهمة في مدوناتهم، كما تناولوا المكون الصوتي انطلاقا من أسئلة جمالية بلاغية ركزوا –من خلالها- على دور الحروف وأثرها في المعنى ووظائفها في الكلام، كما هو الشأن بالنسبة لابن سنان وابن الأثير.

وانطلاقا من تلك الفرضية، سيسعى البحث لتتبع الدرس الصوتي من منظور البلاغيين من خلال مؤلف ابن سنان الخفاجي (سر الفصاحة)، إذ يعدّ من البارزين في ربط الصوت بالبلاغة، مستندا على أثره على الكلام بالاعتماد على دراسات اللغويين والبلاغيين. وتُحرك البحث مجموعة من الأسئلة منها:

-كيف ساهم اللغويون في بلورة درس صوتي عربي قديم؟

-ما هو دور البلاغيين في ذلك؟ وما هي الإضافة التي أدخلوها على جهود اللغوين، خاصة وأنهم تناولوا الأصوات من جانبها البلاغي؟

-ما مدى تقدم البحث الصوتي عند ابن سنان الخفاجي؟ وما مدى تأثيره فيمن لحق به؟

هذه الأسئلة وغيرها سيسعى البحث للإجابة عنها بالاستعانة بالمصادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع، انطلاقا من أن دراسات القدامى لا تزال قادرة على مد البحوث بالمزيد من النتائج العلمية، مهما تعاقبت عليها الأقلام والبحوث.

ومن الدراسات السابقة في الموضوع نذكر: كتاب علي خليف حسين منهج الدرس الصوتي عند العرب (2011)، وكتاب حسام البهنساوي الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث (1992)، وكتاب عيسى واضح حميداني الصوت اللغوي دراسة وصفية تشريحية (2016)، وجميعها -على أهميتها- لم تتعمق في مسألة الامتداد المعرفي بين البلاغي والصوتي، أو إسهامات البلاغيين القدامى الصوتية، ودور علم الأصوات في تعميق البحوث البلاغية وتأصيلها كما هو الشأن عند ابن سنان الخفاجي، لانطلاقها من النظرة الكلية للمسألة.

وعليه فإن هدف هذه الدراسة هو تتبع إسهامات اللغويين وتأثيرهم على البلاغيين، وخاصة ابن سنان الخفاجي، وأثره على من لحق به، ومواقفهم منه من خلال المحاور الآتية:

*علم الأصوات في الدرس اللغوي العربي.

*البلاغة والصوت.

*فصاحة الصوت من وجهة نظر ابن سنان (ت466ه).

*بلاغة الصوت في (سر الفصاحة).

II - علم الأصوات في الدرس اللغوي العربي:

يعد الخليل بن أحمد (ت 175ه) أوَّل لغوي عربي قدم تصنيفا للأصوات حسب موضع النُّطق، ثم توالت بعده الدراسات والبحوث وتنوعت، وشارك فيها البلاغيون وأصحاب القراءات والتجويد والفلاسفة. ([1] ينظر: حسام البهنساوي: (1992) ص: 168. عصام نور الدين (1992) ص: 30 ، ص: 33. نعمة رحيم الغراوي (1978) ص: 193 ص: 196)، تدفعهم في ذلك الغيرة الشديدة على اللغة العربية، والرغبة في كشف أسرارها، وضبطها بالقوانين التي تحافظ عليها من اللحن. يقول إبراهيم أنيس: "وقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم. وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربي، ولاسيما في الترتيل القرآني..."([2]إبراهيم أنيس: ص: 4). ويؤكد علاء جبر محمد ذلك في حديثه عن جهود العرب اللغوية قائلا: "ولعل الغاية الرئيسة من تأسيس علوم العربية الأساسية، هي الغاية الدينية المتمثلة في الحفاظ على اللسان العربي سليما صحيحا فصيحا، خاليا من العيوب واللحون التي قد تطرأ من خلال الاحتكاك بالأقوام الأخرى، بفعل التجاور أو التزاور أو الغزو، أو غير ذلك من عوامل الاحتكاك البشري على مختلف مستوياته التعاملية". ([3]علاء جبر محمد (2006) ص: 9).

وتأتي الإشارة إلى هذا العامل القوي ردا على بعض الدراسات التي تذهب إلى أن العرب ساروا في دراساتهم الصوتية على خطى الأقوام الأجنبية (الهنود والإغريق)، بحجة نضج المنهج لديهم في مقابل انعدام النضج العلمي لدى العرب في تلك المرحلة المبكرة من مراحل البحث العلمي العربي، ويقصد بذلك مرحلة الخليل بن أحمد، ولكن فات أصحاب تلك المواقف أن نشأة الدرس الصوتي على يده كانت ضمن الجو الحضاري الناهض في زمنه، فضلا عن خلو عمله من أي مصطلح دخيل أو معرب كما هو الحال بالنسبة للعلوم المترجمة، حيث تكون حافلة بالمصطلحات الدخيلة ما يدل على أصالة جهده في ترتيب الأصوات على أساس المخرج ([4]علي خليف حسين (2011) ص: 86)، اعتمادا على الذوق والملاحظة والفطنة والثقافة ([5]ينظر: عصام نور الدين ص: 6). يقول حسام البهنساوي في كتابه عن الدراسات الصوتية العربية القديمة: "لقد اعتمد هؤلاء العلماء على إمكانات ذاتية، تتمثل في اعتمادهم على التذوق الشخصي، والحس المرهف، فحددوا بهذه الوسائل البسيطة مخارج الأصوات وصفاتها، وصنفوها تصنيفا جيدا، يتطابق في كثير من جوانبه الفوناتيكية مع ما توصلت إليه الدراسات الفوناتيكية الحديثة، على الرغم مما تتمتع به هذه الدراسات الحديثة من تقدم علمي مذهل وامتلاك آلات ومخترعات تقنية وتكنولوجية متقدمة..." ([6]حسام البهنساوي ص: 12، 13)، ويؤكد ذلك ما وصلوا إليه من نتائج تعبر عن حقائق صوتية بمصطلحات دقيقة ([7]ينظر: شرف الدين الراجحي وسامي عباد حنا (2003) ص: 198. عاطف فضل محمد (2012م، 1434ه).

III - البلاغة والصوت:

لم يكن الصوت من اختصاص علماء النحو أو اللغة وحدهم، فقد نافسهم في دراسته البلاغيون، واعتبروا البحث فيه والتأسيس له -نقديا- مهمّا في حكمهم على النص الأدبي. فتحدثوا عن اللفظ الرشيق والغريب والوحشي، وبحثوا في مخارج الحروف أو

كما اصطلح عليها بعض المحدثين ((نقاط الارتكاز)) ([8]ينظر: نعمة رحيم الغزاوي ص: 194) ومقاطعها، وطالبوا بمراعاتها في عملية التأليف، وألحّوا على قضية التآلف والانسجام. فقد ذكر ابن طباطبا (ت322ه) في (عيار الشعر) أن الأثر الجميل من جمال اللفظ حين "تكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة ولا متعبة، لطيفة الموالج، سهلة المخارج" ([9]ابن طباطبا (2005، 1426) ص: 10). وقال ابن شهيد (ت425ه): "إنّ للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلمات، فإذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة، وإذا ركّبت صور الكلام من تلك، حسنت المناظر، وطابت المخابر".([10] ابن بسام ص: 434) ويعد الجاحظ على رأس البلاغيين إشادة بأهمية الصوت وأثره على الكلمة والتأليف، فقد درس أمراض اللغة واختلاف الصوت باختلاف المجتمع والعرق، ودور الأعضاء وأثرها عليه (أي على الصوت)، وتأثره بما يصيبها من خلل أو عيب ([11]ينظر: الجاحظ (1418ه، 1998م) ص: 65)، كما ألحّ على ضرورة الانسجام الصوتي بين ألفاظ البيت الشعري قائلا: "إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات..." ([12]المصدر نفسه، ج1، ص: 66، 67) وغيرها مما يدل على أهمية الصوت ومعياريته. كقوله: "وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملبسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سلسة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام، خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد." ([13]المصدر نفسه، ج1، ص: 67)

فانطلاقا من أن وظيفة البلاغة هي دراسة أدوات التعبير اللغوي، وكيفية إنتاجها للمعنى ([14]ينظر: علاء جبر ص: 13)، وأن مستويات اللغة النطقي والتركيبي والدلالي شديدة الاتصال، تأصل اهتمام البلاغيين بالصوت مع احتفاظهم باختصاصهم ومنهجهم وغاياتهم. يقول محمد عبد المطلب: "الحقول المعرفية المندرجة تحت مسمى العلوم العربية هي علوم تكميلية، أي أن كل علم يكمّل العلم الآخر ومجموع تلك العلوم يقدم تفسيرا كاملا للظاهرة اللسانية" ([15]محمد عبد المطلب (1997م) ص: 4)

IV- فصاحة الصوت من وجهة نظر ابن سنان (ت466ه):

يعد تناول كتاب (سر الفصاحة) للصوت أقوى دليل على التقاطع المعرفي بين اللغوي والبلاغي، إذ أدرك صاحبه أن البحث عن بلاغة النص لا يكتمل إلا بدراسة أصواته، لذلك تدرّج في الحديث عن الفصاحة وذكر شروطها ومظاهرها، بدءا بأصغر وحدة لغوية وهي (الصوت)، وصولا إلى الكلام، حتى أنه حين وصل إلى شروط فصاحة الكلام أعاد الشروط المتعلقة بالصوت نفسها، منبّها إلى أن سلامة الكلمة من سلامة النص وبلاغته، مما يعني أن ابن سنان يعتبر الإحاطة بالأصوات أولى درجات الفصاحة. فبعد أن أعلن الهدف من تأليفه قائلا: "اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها ..."، ([16]ابن سنان الخفاجي (1982م، 1402ه) ص: 13) صرّح: "ونحن نذكر قبل الكلام في الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها، ... ثم ندلّ على أنّ الكلام ما انتظم منها، ثم نتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من الحروف، وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل،... ثم نبين بهذا كله وأشباهه مائية الفصاحة...".([17]المصدر نفسه، ص: 14) وعليه فإن خطة عمل ابن سنان تتمثل في:

1/ ذكر أحكام الأصوات وحقيقتها.

2/ تقطيع الأصوات وتمييزها.

3/ مخارج الحروف.

4/ وصف حروف العربية.

5/ التمييز بين المهمل والمستعمل من الحروف.

ولا يدعي ابن سنان لنفسه سبقا، ولكنه يضع جهده –مقارنة بما سبقه- موضع التفرد. ([18]المصدر نفسه ص: 15) والصوت عنده "مصدر ... عام ولا يختص...مذكر...". ([19]المصدر نفسه ص: 15، 16) وأما في الاصطلاح فهو: "معقول، لأنه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك، وهو عرض ليس لجسم، ولا صفة لجسم".([20]المصدر نفسه ص: 16) وينتج بسبب الهواء وعدد من الأعضاء التي تتحوّل بها الذبذبات إلى أصوات وحروف، لأنه "يخرج مستطيلا ساذجا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا". ([21]المصدر نفسه ص: 22) والحرف "حدّ منقطع الصوت، وقد قيل: إنها سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح كحروف الشيء وجهاته" ([22]المصدر نفسه ص: 23).

وهذا التعريف متقدم من ابن سنان مقارنة بمن جاء قبله من البلاغيين، فقد ورد عن الجاحظ تعريفه للصوت أنه: "آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف". ([23]الجاحظ ج1، ص: 79) وهو تعريف عام.

وتختلف الحروف "باختلاف مقاطع الصوت، حتى شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، لأن الصوت يخرج منه مستطيلا ساذجا، فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزاوجة بينها سمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا وقع الصوت في الحلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف...".([24] ابن سنان الخفاجي ص: 26).

ويبلغ عدد حروف العربية عنده تسعة وعشرين حرفا هي: الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء والقاف والكاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والميم والواو. نافيا العدد الذي وضعه المبرد وهو ثمانية وعشرون حرفا. ([25]ينظر: المصدر نفسه ص: 27) ومعيار ذلك هو المشافهة والنطق لا الكتابة. ([26]ينظر: كمال محمد بشر (1986) ص: 95) كما أن ترجيحه لرأي سبويه بأن مخرج الهمزة والألف والهاء من أقصى الحلق خلافا لرأي الأخفش الذي زعم أن الهاء مع الألف لا بعدها، رأي يتوافق والدرس الحديث، لأن الصوت لا يخرج من موضع واحد. ([27]ينظر: كانتينو جان (1966م) ص: 32).

ولم يكتف بهذا التقسيم الصوتي للحروف، إذ ميز بينها من الناحية البلاغية إلى مستحسنة الاستعمال وهي ستة أقسام: النون الخفيفة/ الهمزة المخففة/ ألف الإمالة/ ألف التفخيم/ الصاد التي كالزاي/ الشين التي كالجيم، ومستقبحة تتفرع إلى ثمانية أقسام

هي: الكاف التي بين الجيم والكاف/ والجيم التي كالكاف/ والجيم التي كالشين/ والطاء التي كالتاء/ والضاد الضعيفة/ والصاد التي كالسين/ والظاء التي كالتاء/ والفاء التي كالباء. ([28]ينظر: ابن سنان الخفاجي ص: 30 وما بعدها).

والحقيقة أن ما أتى به ابن سنان تثمين لما سبقه من دراسات في الموضوع، وخاصة دراسة ابن جني. فبحثه قريب جدا من بحث الأخير في كتابه (سر صناعة الإعراب) منهجا وتقسيما وعدّا. وليس ذلك غريبا على البلاغيين العرب القدامى، فالنشأة الأولى للخطاب البلاغي العربي القديم كانت في أحضان اللغويين، وإن ارتبطت غايتها بدراسة أساليب النص القرآني الذي بلغ بالعربية أعلى درجات البيان والإبداع اللغوي، لذلك يعد الدرس اللغوي الرافد القوي الذي دعم آراء البلاغيين ومواقفهم المتعلقة بالصوت. ويمكن الاستدلال على ذلك من كتاب ابن جني. فالصوت حسبه: "عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطاعته...". ([29]ابن جني ص: 6) وعمله كعمل الناي. ([30]المصدر نفسه ص: 8) أما عدد الحروف العربية فهو تسعة وعشرون حرفا أولها الألف وآخرها الياء خلافا لما ورد عن المبرد. ([31]ينظر: المصدر نفسه ص: 41 ص: 45) وتتفرع -من حيث الاستعمال- إلى مستحسن ومستقبح، ومنها المهموس والمجهور، الشديد والرخو، المهمل والمستعمل. ([32]ينظر: المصدر نفسه ص: 60 وما بعدها) غير أن الفارق بين الرجلين واضح، فالأول بحث الصوت اعتبارا وتمهيدا لبحثه البلاغي، بينما انصب اهتمام ابن جني على الصوت من حيث أنه حدث لغوي. كما أن ابن سنان وهو يتخذ من ابن جني مثالا ورافدا، خالفه في مواطن عدة ذكرها في كتابه، كما خالف غيره من اللغويين كالمبرد وأبي العلاء المعري. ([33]ينظر: ابن سنان الخفاجي ص: 27، 28) ولا يمكن اعتبار ابن سنان في اقتدائه الواضح بابن جني وسبويه في مسائل الصوت إلا دليلا على الولاء العلمي لأهل الاختصاص.

ومن النقاط التي وقف عندها ابن سنان: إنتاج الصوت واستقباله. فأما إنتاج الصوت فيتم بطريقتين هما الاعتماد والمصاكة، فالصوت يحتاج للحركة لأنه يتولد من الاعتماد على وجه المصاكة، والاعتماد يولد الحركة. ([34]ينظر: المصدر نفسه ص: 12) ويصطلح على هذه العملية في الدراسات الفونيتيكية المعاصرة بالقرع والقلع. يقول علي خليف حسين أن الصوت هو "الأثر السمعي الناتج من تموج الهواء بسببه" وهذا الأثر "يستند إلى عمليتين مهمتين هما: القرع والقلع ومنهما تحدث الاهتزازات وتنتقل في الهواء إلى جميع الاتجاهات"، ([35]علي خليف حسين ص: 42) في حين أن معيار الاستقبال هو السمع والعرف العربي. وهذا ما جرّ صاحب (الفصاحة) لتقسيم الأصوات إلى مستحسنة ومستقبحة.

V- بلاغة الصوت في (سر الفصاحة):

للصوت في العربية وقع خاص، وله عند علمائها مكانته، فقد تباروا في درسه وتبيين صفاته ومعانيه خدمة للقرآن، وحرصا على الوزن والإيقاع، إيمانا بأن المستوى الصوتي أبرز المستويات اللسانية. وبالنسبة لكتاب (سر الفصاحة)، فإن الحديث عن الصوت في صميم اهتمامه البلاغي، لأن الصورة البديعة لا تتحقق إلا بتكامل مجموعة من الجوانب، وأولها الجانب الصوتي، فالكلمة مجموعة أصوات كلما حسنت مخرجا ونطقا حسنت استقبالا.

وقد وزع ابن سنان شروط الفصاحة، بما أنها نعت للألفاظ،([36] ينظر: ابن سنان

الخفاجي ص: 85) وصفة للكلمة وللكلام وللمتكلم، ([37]ينظر: محمد محمد أبو موسى (1416ه، 1996م) ص: 61) على قسمين هي: شروط مرتبطة باللفظ المفرد، وأخرى مرتبطة بالألفاظ منظومة. فأما شروط اللفظة المفردة فيتقدمها التأليف من حروف متباعدة المخارج مستأنسا في ذلك برأي الخليل، ([38]ينظر: ابن سنان الخفاجي ص ص: 48، 89، 54) لأن استقامة الكلمة لا تقع إلا بمراعاة مخارج أصواتها، وكلما تباعدت هذه المخارج حسنت نطقا ولطفت سمعا، ومن سنن العرب اطراح الأبنية التي يصعب النطق بها لتقارب مخارجها ككلمة "الهخهع"، وباقي أصوات الحلق لثقلها، كأن يقال: قج/ جق/ كج/ جك/ قك/ كق، أو الأصوات المتجاورة مثل: سص/ سز/ زس/ زص/ صز، ([39]ينظر: المصدر نفسه ص: 58) أو تضعيف المتجاور منها، لأن "المكرر معرض في أكثر أحواله للإدغام، ... والحرفان المتجاوران لا يمكن إدغام أحدهما في الآخر" ([40]المصدر نفسه ص: 57، 58).

إن جميع هذه الأمثلة وضعيات نطقية صعبة. وهي من منظور الفصاحة العربية، خالية من اللين والسلاسة والألفة، وقد حدد الجاحظ قائمة بالحروف التي لا يجوز اقترانها، فالجيم لا تقارن الظاء والقاف والطاء والعين، والزاي لا تقارب السين والظاء والضاد والذال. ([41]ينظر: الجاحظ ص: 69) كما حاول محمد محمد أبو موسى –من المعاصرين- في كتابه (خصائص التراكيب) أن يجد تفسيرا لاستهجان كلمة (الهعخع)، فذهب إلى أنها اسم لشجر كريه مرّ الطعم يتسبب في حدوث القيء، وكأنه قريب -في صعوبة تذوقه- من صعوبة النطق به، ([42]ينظر: محمد محمد أبو موسى ص: 62) وهذا تنبيه إلى أن تأليف اللفظة لابد فيه من مراعاة المخارج، وإلا نتج عنه تنافر شديد وثقل يحدث عسرا في النطق، كما شبّه تنافر الأصوات لتقارب مخارجها بالمقيّد، وشرح ذلك قائلا بأن "أعضاء النطق بعد إخراج الصوت يضطرها الحرف الثاني إلى أن تعود إلى مخرج قريب جدا من الأول وكان يسهل عليها أن تنتقل إلى مخرج أبعد، كأن تثب من الحلق إلى اللسان مثلا، والمقيد ينقل قدمه ليضعها بعيدا ثم يثقله القيد فيضطر إلى أن يعود في موضع قريب جدا، والعرب يكرهون هذا" ([43]المرجع نفسه ص: 62).

إن التواصل اللغوي مرهون بشكل كبير بالنطق، وهذا مرهون بدوره بالقدرة على إخراج الحروف، ومن ثم توصيلها للسامع دون عناء، لذلك لفت موضوع مخارج الأصوات -وهو من موضوعات الصوتيات النطقية phonétique articulatoire- علماء الأصوات على مر العصور، واستعملوا لذلك تسميات مختلفة ومنها: الموقع، والموضوع، والمجرى، والحيز، والمخرج. ([44]ينظر: عيسى واضح حميداني (2016) ص: 96. ينظر أيضا: 17، 18)

غير أن ابن سنان لم يكتف بشرط التأليف من الحروف المتباعدة، لأنه لاحظ أنّ شرطا آخر يعود إليه الأمر، وهو مقياس السمع. فمن الألفاظ ما هو متباعد الحروف، ولكن الاستعمال أثبت أنه يصلح في وضعيات نطقية ولا يستساغ في أخرى. من ذلك حروف العين والذال والباء. فالتأليف منها يعطي: عذب، عذاب، عذيبة، وجميعها وقعه حسن على الذوق، بشرط التأليف المخصوص لها. فلو قدمت الذال أو الباء فقدت الحروف صفة الفصاحة. ([45]ينظر: ابن سنان الخفاجي ص: 65) فرغم الإبقاء على الحروف نفسها، ورغم توفر شرط التباعد، إلا أن التقديم والتأخير أفسد الكلمة وأفقدها نغمها، إذن فمعيار الاستحسان –إضافة إلى التباعد- هو السمع. ويقدم ابن سنان لذلك دليلا آخر وهو حروف كلمة الغصن والفنن، وهي أحسن من العسلوج، وأغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع. لأن "الحروف التي هي أصوات تجري من

السمع مجرى الألوان من البصر، ولاشك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة...".([46] المصدر نفسه ص: 85) وهو رأي سديد من وجهة نظر رحيم الغزاوي حيث اعتبر مسألة الاحتكام للسمع مناسبة جدا لعمل الأذن وتأثيرها على التلقي. ([47]ينظر: نعمة رحيم الغزاوي ص: 199، 200)

ومن الشروط الاعتدال في عدد الحروف، فمتى كانت اللفظة كثيرة الحروف، "خرجت عن وجوه الفصاحة"، ([48]ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص: 87) ككلمة "سويداواتها" التي وردت في عجز قول المتنبي:

إنَّ الكرامَ بلا كرامٍ منهم مثلَ القُلوبِ بلاَ سُويدَاواتِهَا

وكلمة "مغناطيسهن" التي وردت في بيت أبي نصر بن نباتة: ([49]المصدر نفسه، ص: 88)

فَإياكم أنْ تَكشِفُوا عَن رؤُوسِكم أَلَا إن مغنَاطِيسهنَ الذَّوائِبُ

وكلمة "فلأذربيجان" في بيت لأبي تمام وغيرها.

وهذا الموقف يستند على الذوق العربي الذي كان يستحلي اللفظ قليل الأحرف، ويستثقل اللفظ الطويل وينفر منه. فالفصاحة هي "حسن التأليف في الموضع المختار..."، ([50]المصدر نفسه، ص: 95) لأنها "تنبئ عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها، ولها من هذه الأمور صفة نقص، فيجب اطراحها". ([51]المصدر نفسه ص: 84).

وقد لقي هذا الموقف نقدا عند ابن الأثير (637ه) بحجة أن العيب ليس في عدد حروف الكلمة، بل في جمعها وإلا كانت كلمة " لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ" التي جاءت في سورة النور الآية 55، وكلمة "فَسَيَكْفِيكَهُمُ" التي جاءت في سورة البقرة الآية 137 من كتاب الله العزيز الحكيم ثقيلة مستكرهة بسبب الطول. وبمثل هذا الإنكار ردّ قول ابن سنان بأن كلمة (مستشزرات) ثقيلة ليس لطولها معللا حكمه بأن كلمتي مستنكرات ومستنفرات -على طولهما- أفضل وأنسب، ومعيار ذلك كله هو السمع وليس الطول. ([52]ينظر: ابن الأثير ص: 204، 205).

ويواصل ابن سنان قائمة شروط فصاحة الصوت وبالتالي الكلمة بشرط التصغير، واعتبره أفضل من التطويل، خاصة إذا كان المعنى يحتاج ذلك، فكلمة "رويحة" التي وردت في بيت الشريف الرضي حسنة: ([53]المصدر نفسه ص: 89).

يُولّع الظّل بردَينَا وَقدْ نَسَمتْ رُوَيحةُ الْفجرِ بَينَ الضّالِ والسّلمِ

قد ناسبت نسيم الفجر، على أن تصغير الكلمة لا يقع إلا وفق شروط يتطلبها المعنى، وهو في كلام العرب لم يدخل إلا لنفي التعظيم. قال ابن سنان –محتكما إلى كلام المبرد-: "... ويقوي عندي ما ذهب إليه أبو العباس المبرد أنهم وضعوا التصغير أمارة للتحقير والتعظيم معا، فقد زالت الفائدة به ولم يكن دليلا على واحد منهما، بل يرجع إلى المقصود باللفظة ويلتمس بيان ذلك من جهة المعنى دون اللفظ، ... وعلى كلا القولين فليس التصغير عندي وجها من وجوه الفصاحة إلا في الموضع الذي ذكرته، ... وعلى هذا أجمل قول المتنبي:

أحَاد أَمْ سد فِي أحادٍ لييلَتَنَا الْمنُوطة بِالثَّنَاءِ

فلا أختار التصغير في –لييلتنا- لأنه تصغير تعظيم". ([54]المصدر نفسه ص: 91).

إن جميع هذه المقاييس، وإن ارتبطت بجانب النطق وباللفظة مفردة، مقاييس بلاغية بحتة، لأنها تؤكد على شروط صحة اللفظة، وقد أكدها البلاغيون واشترطوا تجنبها. يقول قدامة بن جعفر (ت337ه) متحدثا عن نعت اللفظ الجيد: "أن يكون سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة...". ([55]قدامة بن جعفر: (1302) ص: 9) ويقول ابن الأثير: "أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسبروا وقسموا، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه. ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذا من الألفاظ هو الحسن". ([56]ابن الأثير ص: 195. ص: 91) وقال منبها على خاصية استعمال بعض الحروف شعرا وكتابة: "واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها". ([57]المصدر نفسه ص: 140).

وأما فيما يخص انتقاد ابن الأثير الملحوظ لسر الفصاحة، فإنه دليل على رواج كتابه، إذ يبدو من إشارات كثيرة له أنه اطلع عليه، وعني بآرائه، وإن لم يتفق معه في كثير منها، وتلك عادة العلماء، ودليل على اتقاد الأذهان واطلاعها على المؤلفات، ومن المواضع التي تعبّر على ذلك، قول ابن الأثير في مسألة ربط فصاحة اللفظ بالحروف المتباعدة المخرج: "وفي الذي ذكره (يقصد ابن سنان) ما لا حاجة إليه"، ([58]المصدر نفسه ص: 172) لأن حسن الألفاظ ليس معلوما من تباعد المخارج، "وإنما علم قبل العلم بتباعدها"، ([59]المصدر نفسه ص: 173) ومردّ الاستحسان السمع لا غير، "فإذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجدت ما تستحسنه متباعد المخارج، وما تستقبحه متقارب المخارج، واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج، لا بعده... على أن هذه قد يجيء في المتقارب المخارج، ما هو حسن رائق". ([60]المصدر نفسه ص: 173) وضرب مثلا لذلك حرفي الجيم والشين والياء، وهي حروف متقاربة المخارج، فهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك، وهي من الحروف الشجرية، ومنها ألفاظ مستعذبة كلفظتي: (جيش/ شجي). ومن المتباعد ضرب مثلا كلمة (ملع)، ومخارجها الشفة والحلق ووسط اللسان، ومع ذلك فهي مستكرهة. ([60]ينظر: المصدر نفسه ص: 174)

ولم يقتصر حديث ابن سنان عن الصوت في حال الإفراد، بل تعداه للحديث عن أثره في التأليف. ووضع لذلك ثمانية شروط أيضا. كما رتبها الترتيب نفسه الذي اشترطه في باب اللفظ، إذ بدأها بتجنب التأليف بكلمات حروفها متقاربة مكررة، لأن "التأليف على ضربين: متنافر ومتلائم، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه، ... كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض"، ([61]ابن سنان الخفاجي ص: 99) وأما التنافر فيقع –حسبه- في قرب مخارج الحروف، ([62]ينظر: المصدر نفسه ص: 101) ثم تلاه بشرط التأليف الحسن للألفاظ بما يجذب السمع، وبناء الكلام على غير الوحشي ولا العامي، مع شرط عدم الخروج عن العرف اللغوي أو استعمال المكروه من الكلمات، ([63]ينظر: المصدر نفسه ص: 101، ص: 111) وعدم التأليف من كلمات مكررة كقول الشاعر: ([64]المصدر نفسه ص: 97)

لَو كُنْت كُنْت كَتَمْت الْحُبَّ كُنت كَمَا كُنَّا نَكونُ وَلكِن ذَاكَ لَمْ يَكُن

وقول آخر:

وَقَبرُ حَربٍ بِمكَانٍ قَفرٍ وَلَيسَ قُرْبَ قَبرِ حَربٍ قَبْرُ

وهذا أردأ أنواع التكرار لتردد حروف القاف والباء والراء مع ثقلها على النطق والسمع معا. على أن ابن سنان استثنى نوعا من التكرار إذا كان ميزة في شعر الشاعر كولع أبي الحسن مهيار الديلمي بتكرار كلمة (طين) في شعره. واعتبره أفضل من تكرار الكلمة في البيت الواحد أو القصيدة الواحدة، واستثنى أيضا التكرار إذا كان المعنى يتطلبه بأن يكون "مبني عليه، ومقصور على إعادة اللفظ بعينه". وهنا يقرر ابن سنان شرطا من شروط التكرار حتى يحسن، وهو أن يتوافق والمعنى.

إن شروط الفصاحة في حالتي الإفراد والتأليف معا حسب ابن سنان مرتبطة جميعا بالصوت، فإليه يرجع فضل الحسن والجودة، لذلك تقدم كلامه عن الصوت، كلامه على ما يشوب التأليف من نقص وعيب يقفان حائلا دون تحقيق الفصاحة والبلاغة، كسوء التقديم والتأخير، أو فساد الاستعارة والتشبيه، أو التعسف في الضرورات، وغيرها من عيوب الكلام، وكأنه يتمّم كلامه عن الصوت، ويوضح جوانب السلب والإيجاب فيه، وينبه إلى أن بلاغة النص تقوم على أساس النطق وسلامة الأصوات، وأن التأليف لا يكتمل إلا بالتناسب الصوتي، وأوضح مظاهره ما يقع في القوافي. وقد تطرق ابن سنان لما يحول دون وقوع التناسب فيها، وهو ما اتفق عليه –بلاغيا- بعيوب القوافي من إقواء وإيطاء وسناد. وتعود جميعها إلى خلل في الصوت والحرف، كتغيير حركة الإعراب كما شاع عن النابغة، أو تكرار حروف القافية ذاتها مرتين كما في بيت ذي الرمة:

صَدى أَحْسن يَزوِي لَهُ الْمرْءُ وَجهَهُ وَلَوْ ذَاقَهُ ظَمآنُ فِي شَهر نَاجر

وَمنَاهُمَا بِالْخمسِ وَالخمس بَعْدَه وَبِالحَلّ وَالترْحَالِ أيَام نَاجر

أو جعل حروفها متقاربة كقول الشاعر: ([65]المصدر نفسه ص: 106)

بُنيَّ أَي الْبرّ شيْءٌ هيّنٌ الْمَنطقِ اللينِ وَالطّعيم

ممثلا العلاقة بين الحروف والأسماع بالعلاقة بين الألوان قائلا: "إن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولاشك في أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد بأحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود". ([66]المصدر نفسه ص: 185- ص: 188)

ورونق الصوت وإسهامه في تحسين النغم، سواء كان في الشعر أم النثر، مقياس بلاغي، فقد نصّ قدامة بن جعفر على أهمية اختيار الحسن من الأحرف للقوافي في فصل نعت القوافي. ونبّه القرطاجني (ت 684ه) إلى أنّ صناعة العروض تتوقف على معرفة جهات التناسب في تأليف المسموعات إلى بعض، بتناسب وانتظام وتوازن وترتيب الكلمات والأصوات والجمل، وفق ما دلّه عليه (علم البلاغة الكلي). ([67]حازم القرطاجني (1981) ص: 119) واعتبر ابن الأثير الصوت معيار فصاحة اللفظ ومن

ثمة التأليف قائلا: "الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح". ([68]ابن الأثير ص: 91. وينظر في السياق نفسه ص: 70، 71).

وفي مجمل القول، فإن ما جاء به ابن سنان فيما يتعلق بفصاحة الصوت وارتباطه بالمعنى، لا ينفصل عما ورد عن البلاغيين، مع إضافة أنه مهّد لبحثه البلاغي ببحث الأصوات، وفصّل فيها اقتداء باللغويين تعريفا وتقسيما ووصفا. ولكنه انطلق من فكرة أساسية وهي أن الصوت العربي لا ينفصل عن المعنى ولا عن الإحساس به، فبه تستميل الأذن باقي الحواس لتشعر بالمعنى وتتأمله، لأن معاني الحروف من خصائص الأصوات، فالحرف القوي يوحي بالقوة، والحرف اللين يوحي باللين والرقة والخفوت.

وهذا الربط بين الصوت والمعنى مرتبط بتذوق العربي للغته وفهمه لها واستعماله، فلقد حوّل حروفه "من مجرد أصوات إلى أدوات فنية متخصصة صالحة لبناء ثقافة عربية رائدة أصيلة في أحاسيسها ومشاعرها ومفاهيمها... فكان الحرف العربي بذلك هو على العموم أداة الفكر العربي ومحتواه على حد سواء". ([69]حسن عباس (1998) ص: 232) وتأتي محاولة ابن سنان تكميلا لما سبقه ودليلا على شغف العرب بالألفاظ وجمال وقعها، وحرصهم على جعل الكلمة وحدة منسجمة تخف على اللسان والسمع، من خلال اجتهادهم في تخليصها مما يفقدها التلاؤم والانسجام، حتى ينطق بها اللسان في يسر وسهولة.

عموما، فإن تركيز ابن سنان، كغيره من البلاغيين في بحوثهم الصوتية على الفصاحة، دفعهم إلى البحث في آلية النطق وأدائها، وعيوبها ومظاهرها كالبحة والحبسة والعجز والعي والفأفأة وغيرها، وهذا دليل على أن ما قدّم في هذا المجال هو خلاصة تجربة تفاعلية بين ما هو لغوي وما هو بلاغي.

V I- خاتمة:

إن الدرس الصوتي العربي القديم ثري بمباحثه، فقد قدّم العرب دراسات معتبرة لأصوات اللغة العربية، تناولوا من خلالها جهاز النطق، ومخارج الحروف وصفاتها، وتصنيف الأصوات اللغوية. كما درسوا ائتلاف الأصوات ووظائفها في الكلام، ومختلف التغييرات التي تطرأ عليها، والتي بها يتبدل المعنى، وسيلتهم في ذلك الحس الدقيق بالصوت والملاحظة.

وبالنسبة لابن سنان، لا يبتعد ما جاء به في كتاب (سر الفصاحة) عمّا نقرأه في كتب علم الأصوات الحديث، من حيث كلامه عن الجهاز الصَّوتي (جهاز النطق)، الذي يزوّد الناطق بالأصوات بمختلف مخارجها وصفاتها: لثوية، أسنانيّة، شفوية، لهويّة، مهموسة، مجهورة، رخوة، شديدة، وغيرها، والأهم من ذلك يتأكد المطلع على الكتاب –بوضوح- جنوح صاحبه بالدرس الصوتي إلى ما يخدم توجهه البلاغي، فبعد أن وقف على الأصوات منفردة، تناولها في حالة التضام، مبرزا ما ينتج أثناء ذلك من تقارب وتجاور أو تباعد وتنافر، وما يتبعه من حسن أو قبح، مؤكدا على أهمية (وحدة النسج)، فالتركيب أن تتآخى الألفاظ وتنسجم من الناحية الصوتية، بحيث تؤلف نغما تطرب له الأذن وتقبل عليه النفس، احتكاما لمقياس (الصحة والصواب).

ويبقى الكتاب كغيره من كتب التراث البلاغي العربي بحاجة إلى مزيد من القراءات العلمية المتأنية، قصد الكشف عن مكنوناتها، وإدراك قيمتها الحقيقية بأدوات منهجية

بوصفها معطى ثقافي متنوع، ومكوّن جوهري من مكونات هويتنا التي تحتاج دائما إلى ما يثريها ويغنيها.

المصادر والمراجـع:

1- ابن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،** قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

2- إبراهيم أنيس: **الأصوات العربية،** مكتبة النهضة مصر ومطبعتها، مصر.

3- ابن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،** تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ق1، م1.

4- الجاحظ: (1418ه، 1998م) **البيان والتبيين،** تح عبد لسلام هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة.

5- حازم القرطاجني: (1981) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء،** تح محمد الحبيب بن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

6- حسام البهنساوي (1992.) **الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث،** ط1، زهراء الشرق، القاهرة، مصر.

7- حسن عباس: (1998) **خصائص الحروف العربية ومعانيها دراسة،** منشورات اتحاد الكتاب العرب.

8- ابن جني: **سر صناعة الإعراب،** دراسة وتح حسن هنداوي.

9- ابن سنان: (1982م، 1402ه) **سر الفصاحة،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

10- شرف الدين الراجحي وسامي عباد حنا: (2003) **مبادئ علم اللسانيات،** دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر.

11- عاطف فضل محمد: (2012م، 1434ه) **الأصوات اللغوية،** ط1، دار ميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن.

12- عصام نور الدين: (1992) **علم وظائف الأصوات اللغوية الفونولوجيا،** ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان.

13-علاء جبر محمد: (2006) **المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور،،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

14- علي خليف حسين: (2011) **منهج الدرس الصوتي عند العرب،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

15- عيسى واضح حميداني: (، 2016) **الصوت اللغوي دراسة وصفية تشريحية،**

دار غيداء للنشر التوزيع.

16- ابن طباطبا: (2005، 1426) **عيار الشعر**، ط2، شرح وتح عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

17- قدامة بن جعفر: (1302) **نقد الشعر**، مطبعة الجوائب، قسطنطينية.

18- كمال محمد بشر: (1986) **علم اللغة العام (الأصوات)**،ط1، دار المعارف، مصر.

19- كانتينو جان: (1966م) **دروس في علم أصوات العربية**، تر صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية التونسية.

20- محمد محمد أبو موسى: (1416ه، 1996م) **خصائص التراكيب**، ط4، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، مصر.

21- محمد عبد المطلب: (1997م) **البلاغة العربية قراءة أخرى**، ط1، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر.

22- نعمة رحيم الغراوي: (1978) **النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري**، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية.